الباب السابع

في ذِكْرِ السُّؤددِ وسِيَرِ الرئاسةِ

وقال الله: ﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ ﴾[1] إلى آخر الآية.

وقالَ رسول الله ﷺ: «مَنْ بذلَ معروفَه وكفَّ أذاه فذلك السيدُ».

وقال ابن عَبّاس: تفقّهوا قبل أَنْ تسودوا فإنّ الفقيهَ السَّيد ينجو، وينجو مَنْ معه، وإنّ الجاهلَ السيد يَهْلكُ، ويهلِكُ مَنْ معه.

وقال أكثم: سيدُ القومِ أسواهم.

وقال الهيثمُ بنُ عدي: قيل لعُرابةَ الأوسيِّ: «بمَ سُدتَ قومَك؟ قال: بأربع خصال؛ بالتخادعِ لهم في مالي، والذلِ في عِرضي، ولم أَحْقِرْ صغيرَهم، ولا حسدتُ كبيرَهم».

وقال علي بن عبدالله بن عباس ﷺ: «سادة الناسِ في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء».

---

(1) المائدة: الآية (12).

وقال سُويدُ بنُ عُقلةَ: «السؤددُ هو أن تنصفَ من لا ينصفُكَ، إذا كنتَ أقدرَ منه، فإنّ مال قلبُك إلى حبِّ الشكر، وطلب الانتصار، عدِمتَ نيلَ السؤددِ».

وقال أبو عمرو بن العلاء: «كانَ أهلُ الجاهليةِ لا يسوِّدون إلا من تكاملتْ فيه ستُّ خصالٍ، وتمامُهن في الإسلام: السخاوةُ، والنجدةُ، والصبرُ، والحِلمُ، والبيانُ، والتواضع، وتمامُهن في الإسلام: التقوى».

وقال مَسْلَمَةُ بن كُهيلٍ: «مرَّ عليُّ بنُ أبي طالبٍ ﷺ، على النبيِّ ﷺ، وعنده عائشةُ رضي الله عنها، فقال: يا عائشةُ، إذا سرّكِ أن تنظري إلى سيِّدِ العربِ، فانظري إلى علي بن أبي طالب رضوان الله عليه فقالت: يا رسول الله ألستَ سيدَ العربِ؟ قال: أنا إمام المسلمين، وسيد المتقين».

وقيل لقريش: بم ساد العباسُ بنُ عبدِالمطلبِ؟ قال: كان يروح بجفنته على فقراءِ بني عبد مناف، ودِرَّتِهِ على سفهائهم.

وقال (أردشير) ملكُ فارس: أشدُّ الأشياءِ أن يصيرَ الرأسُ ذَنَباً، والذَّنَبُ رأساً، والكريمُ مضروراً، واللئيم فَرِحاً».

وقال ذو النونِ المصري: وجِدَتْ صخرةٌ بمكةَ مكتوبٌ عليها:

وماسادَمَنْ لم يَعْفُ عن ذنبِ صاحبٍ

وإنْ كان في إحرامِهِ يتعمده

وقيل لقيسِ بنِ عاصمٍ: بم سُدتَ؟ قال: «ببذلِ النَّدى، وترك المراء، وترك الأذى، ونصر المولى».

وقال خالد بن عبد الله: السيدُ مَنْ سوَّده قومه، والشريفُ مَنْ له مَقْدمٌ في نَسَبِه، والفقيهُ مَنْ عظَّمتْه العامةُ.

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل: مَنْ سيِّدُ قومِك؟ قال: أنا، قال: كذبتَ! لو كنتَ كذلك ما قلتَه.

وقيل للأحنفِ: بمَ سُدتَ قومك؟ قال: بما لا أُضِيعُ ما وَلِيتُ، ولا أَتكلَّفُ ما كُفيتُ.

وقال هشامٌ الكلبيُّ: كان سالمُ بنُ نوفلٍ سيدَ بني كِنانةَ، فجرحَ رجلٌ ابنَه، فأُتي به، فقال له: ما أمَّنك من انتقامي؟ قال: فلم سودناك إلا أن تكظمَ الغيظَ، وتعفوَ عن الجاني، وتحمل المكروهَ؟ قال: فخَلَّى عنه، وفيه يقولُ الشاعرُ:

يُسوِّدُ أقوامٌ وليسوا بسادةٍ
بل السيدُ المعروفُ سَلْمُ بنُ نوفلِ

وقيل لمحمدِ بنِ أبي بكرٍ: كيف كان مصعب بن الزبير؟ فقال: كان والله أنيساً، رئيساً، نفيساً.

قال: وكانت العرب تُسوِّدُ على أشياءَ، أما مضرُ فتسوِّد مَنْ كان أدهى في الرأي، وأما ربيعةُ فتسوّد من أطعمَ الطعامَ، وأما قُثم فتُسَوِّد من كان ذا حسب.

وقال: قدم أعرابيٌّ البصرةَ، فقال: من سيد هذا المِصْر؟ قيل الحسنُ البصريُّ، قال: بمَ سادَ؟ قالوا: استغنى عما في أيديهم من دنياهم، واحتاجوا إلى ما في يدهِ من أمرِ دينهِ، قال: بَخٍ بَخٍ؛ هذا السيد».

الحكاية

لما وَلِيَ زيادُ ابن أبيه، صَعَدَ المنبرَ، فحمِدَ اللَّهَ، وأثنى عليه، ثم قال: أيُّها الناسُ، إني قد رأيتُ حالاتٍ، نبذتُ إليكم فيهن بالنصيحة؛ إعظامُ ذوي الشرف، وإجلالُ ذوي العلم، وتوقيرُ ذوي الإيثار، وإني أعاهدُ اللَّهَ لا يأتيني شريفٌ بوضيعٍ لم يعرفْ له شرفه إلا عاقبته، ولا يأتيني كَهْلٌ بحَدَثٍ لم يعرف له حق سنه إلا عاقبته، ولا يأتيني عالمٌ بجاهلٍ لاحاهُ في علمه ليهجنه إلا عاقبته، وإنما الناس بعظمائهم، وعلمائهم، وذوي أسنانهم ثم تمثّل:

تُهدى الأمورُ بأهلِ الرأيِ إنْ صَلُحتْ
فإن تَوَلتْ فبالأشرارِ تنقادُ
لا يَصْلُحُ الناسُ فوضى لا سَرَاةَ لهم
ولا سراةَ إذا جهالُهُم سادوا
إذا تَوَلى سَرَاةُ القومِ أمرَهم
نما على ذاك أمرُ القومِ وازدادوا